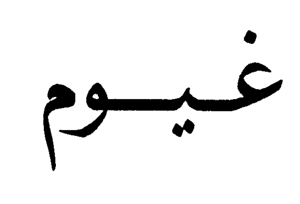
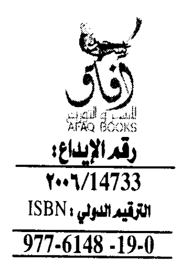
سماء عيسى



سماء عيسى

غيـــوم

♦ Author : Samaa Eissa	♦ المؤلف : سماء عيسى
♦ Title: Clouds	♦ العنوان : غيوم
♦ First Edition: 2006	♦ الطبعة : الأولى ٢٠٠٦
♦ Cover Design by: Maisoon Saker	♦ تصميم الغلاف : ميسون صقر



رقم الإيداع:
٢٠٠٦/14733
ISBN الترقيم الدولي:
977-6148 -19-0

Afaq Bookshop & Publishing House

75 QASR - ALAINI ST., in Front of Dar Al-Hekma, - CAIRO - EGYPT
Tel.fax : +202-795-3811 E-mail:afaqbooks@yahoo.com


غيوم

وكان قد التفتَ قَبلَ رحيلِه
عن الأرضِ إلى السماء،
فرأى أن سحباً سوداء كثيفةً
غطتها،
وعندها ذهب إلى ربوة عالية
ووقف يراقبُ مِنْ هُناك الأرضَ
وهي تندثرُ وبنيها وهم
يغرقون.

* * *

وعندما تسيلُ سيولُ السماءِ، وتنزح وتسيلُ على الأوديةِ مياهُ

الجبالِ، جارفةً العشبَ والحجرَ والشجرَ وعظامَ حيواناتٍ

وطيوراً موتى،

يستيقظُ إذ ذاكَ فرحٌ عميقٌ في الأرضِ، يُهْـرَعُ الرعاةُ

والحطابون والفلاحون إلى منابع الحياةِ الأولى، كمن هَرَع إلى

طفولةٍ مفقودةٍ وبحثَ عن أمٍّ أخذها الموتُ إلـى غيابٍ

أبدي.

***

وأنتِ

يا غمامةَ مطَرِنا الأولى

أيَّتُها الرسولة

إلى جَفافِ الضِّرعِ

ومنفى الشعرِ

أيتها العذراءُ

المرسلةُ لأرضٍ عذراء

أيتها المفتقدةُ

كرُوحِ الطِّفلِ

وقمرِ الرُّعاةِ

أيتُها الخضراءُ

كشجرِ الحطابين.

***

ولكنْ

فقطْ حينَ تعودُ

أيامُ الصَّيفِ

ويخرجُ القمرُ من عزلتهِ

أعودُ أنا إلى ذكراكِ

متى عدتُ

وكان كلُ شيءٍ في غيابٍ

وماءُ الغيم هو ما سنُعجِنُه

بالتربةِ ثم نشعلُ بالفَرحِ

النَّهدَ الصامتَ الحزينْ

***

ولكنك تُصغينَ إلينا

أيتُها الغيومُ

إلى نداءِ الطفلةِ العذبِ

وإلى صُراخِ الشجرةْ

الصراخُ الذى تحملُه ريحُ

القيظِ الهادئةِ وهي

تتهيأ أخيراً

لذاتها.. لذات الحبِّ

والحياة.

***

وعندما تُولدين وتتشكَلين أيتُها الغيومُ

ثم تلتحمينَ غيمةً وأخرى في سماءٍ

لا متناهية، ندرك إذ ذاك طعمَ الماء

الذى سترسلينَه إلينا

ونقفُ لكِ خاشعينَ كعبادٍ أمامَ اللهِ

وكعشاقٍ أمام جمالكِ المطلقْ.

***

وحتى الجبالُ تحاولُ ضمَّكِ إليها

كي تسكُنى قمَمَها

الجبالُ في أبديِّتِها

الجبالُ العاشقةُ

سحبٌ تضيءُ ظلاَم أرضٍ من العراءِ والخَفاءْ.

***

ولقدْ عرفَتِ أيتُّها الغيومُ

ولادةَ الطفلِ بعَد الألمِ

كما هو هطولُ الوَدَقُ

بعد جفافٍ طويلْ

كما هو الجَمالُ

في رَحيلهِ إلى الموتِ

والوردُ

في رحيلهِ إلى الرمادْ

* * *

ترحلينَ

كزورق الشَّمسِ

في رحيلهِ المجهولْ

وتذُوبينَ

كنارٍ هادئةٍ

في السماءْ.

* * *

كان الماءُ

ونحن نَغْسلُ به

جسدَ الميتِ

يَسيلُ

كرمادِ غيمٍ راحلْ

عدا غموضِ الروحِ

وغموضكِ

أيتُّها العمياءُ في الحبِّ

وفي الهجيرْ.

***

الأمُ وهي تغسلُ بالماءِ جسَد الطفلِ الميتِ
وهي تُغمسُ ساقيهِ ويديهِ وتُغمضُ عينيهِ
بماءِ النَّبعِ، ثم تقطفُ من أقربِ سماءٍ
غيمةً بحجمِ جسدهِ الغضْ، وتحفر لها بيتاً
بجوارِ لحدهِ الصغير.

* **

الغيومُ

وهي تسير هادئةً من سماءٍ لأخرى

كالعشاق وهمْ يبحثون في سيرِهم عن

ضوءٍ بعيدٍ كسرابٍ لا يَصِلون

إليه. ولرُبما دفنَتْهم في الطريق

الرمالُ، وتناثرتْ أبدانُهم العليلةُ في

الصحراء، والغيومُ ربما هطلتْ عليهم

ورَوتْهم بالمياهِ ومضتْ تغمرُهم بها

حتى فاضَ بهمُ الوجدَ وانتشرَ العشقُ.

* **

متى عاد العاشقُ إلى منزِله

ووجد البابَ مُغلقاً

فتحتْ له الغيومُ

أبوابَ منازِلنا

وقلوَبنا

* **

... وصغيرةُ المنزلِ التيَ حُلمتْ أن تكونَ غيمةً
تَهطُل ذاتَ مساءٍ على عريشِ القريةِ، وستبكى
أمهاتُنا لأن الغيوَم هطلتْ ورَحلتْ، وستبكى
الصَّبايا لأن العشاقَ كانوا غيوماً وهطَلوا...

***

متى اشتعلتْ النارُ في الزمنِ
متى اشتعلتْ النارُ في الجسدِ
وأضاءت الأرضُ ضياَءها الأخيرَ
قبلَ الموتِ.

* * *

وأنتِ ماذا ستُعطينَ دَمِي أيتُّها الغيومُ
أيتُّها المرأة ذاتُ الفَمِ الشَّبق إلى الحبِّ
ماذا سُتعطين دَمِي؟
فرحٌ لا انتظُره حتى والأرضُ تحتفلُ
بطفولَتِها، فرحٌ كمثْلِ النارِ وهي تُغنِّى
لعشاق الأرضِ، وكمثْلِ البحرِ عندما تسكنُه
وردةٌ في الفجرِ....

***

ليلٌ سيأتي مع الغيمِ
ونارٌ ستضيءُ الكونَ
وهو يُظْلَمُ، أيُّها الضوءُ
يا ضوءَ الشَّبق ويا جمَالُه الحميمْ...
أعنِّي أمامَ هذا الجمالِ الراحلِ
إلى المجهولِ.

***

ولقد سمعنا منكِ أيتُّها الغيوُم، سمعنا خبرَ عـــالمٍ مخلصٍ

أو عالمٍ يبُنى على أنقاضِ عالمٍ قديْم، ولقد سمعنا

منكِ الملاكَ وهو يوقظَ الموتَى إلى الحياةِ

والودقَ ليوقظَ العشبَ ويشعلَ النارَ.

ثم متى نضجَ الثَّمُر ومتى قطفَ الطفلُ الحلمَ

ومتى بكْت امرأةٌ في العتمةِ، تذكرت الغيمَ

وتذكرت قبلةَ امرأةٍ والغيمُ يمطُر ذاتَ

شتاءٍ بعيدْ.

* **

هاهي الغيوُم تحملُ إلى الأطفالِ الفرحَ بالمكـــانِ
والزهوَ بالزمن

هاهي الغيوُم تحملُ المعنَى إلى العدمِ، وتحمــلُ
الرياحَ إلى ضيِاعها الأزَلي

ليتحدَ البحُر بالمطرِ، ويقفَ الغريبُ أمام الأفــق
والشراعُ أمامَ

المجهولِ والغيابْ.

* * *

وسنفتحُ نوافذِنا المغلقةَ وأبوابَنا المهجورةَ

للصغارِ الفارين المختبئين من وَدَقِك الثقيلْ،

أيتُّها الغيوُم وأنتِ ترحلينَ بعيداً، انظري

إلينا وارحمينا.....

***

وحتى أولئك المرضى فـــي غُــرفِهم المغلقــةِ

ينتظرونكِ

أيتُها الغيومُ، الغيومَ وهى تحملُ إليهم زهورَ

الموتِ وفراشاته الخضراءَ على القبورْ.

***

ولكنكِ أيتُّها الغيومُ تهبينَ العشبَ للحياةِ
والأرضَ كأنها أُنثاكِ لترتعشَ كأنها
الجنونَ وهي تستقبلُ عشاقاً من الريح
ورجالاً يحملون معهم البذورَ إلى نساءٍ
موتى...

***

أفيقي معنا إذْن

وارحمينا

ونحنُ نسيرُ إلى الموتِ

نَودُّ لو شَرِبنا منكِ

بعضاً من الروحِ

وبكينا....

* * *

والطيرُ الناريُ

طير الغابةِ

وابنُ الصحراءِ

أخذَنا بعيداً إلى كهفٍ جبليٍ عندما رآكِ

وأنتِ مثقلةٌ بالرغبةِ والحبِ

تَحملينَ إلى الأرضِ خلودَها

وإلى الزمنِ وردةَ الملاكِ

ورمادَه الجميل.

* * *

ونحُن نرسلُ نشيَد مجدٍ لكِ أيتُّها الغيومُ،
نرفُع ساريةَ المجدِ لكِ من العابرين
الذين رحلوا دون أنْ يَرْوك،
من الذين ناموا في الترابِ وهم يَحلُمون
بظلالكِ ومياهِك، منْ سرِ الحياةِ
المختبئِ في بذرةِ الموتِ، وهو يتجه
إليكِ كنبعِ طفولةٍ خالدْ.

* **

هل تُنهين ترحالكِ إلينا، إلى ألمِنا، أوراق عُشْبنا الجافة،

أمهاتِنا الراحِلات، أطلالِ حياتنا المنهارةِ بحثـــاً عنكِ وشغفاً

بجمالكِ أيتُّها الغيوم؟

* **

ونحن نسيُر في الأرضِ متجهينَ إلى شاطِئٍ آخر
ثم إلى جبلٍ آخر

ثم إلى صحراءَ أخرى، بحثاً عن ألوانكِ الدافئةِ
وما تعطِيه

للقلبِ من ثمارٍ غَضةٍ كنهودِ الصبايا عن قطراتِ
نداكِ

الصغيرةِ كدموعِ الصبايا عن فرحٍ غامرٍ سيغمرُ
التربةَ

حين تنهلُ من عشقكِ اللانهائي...

* **

وإلى الأبدِ سيمضِى الكائنُ بين الأحجارِ وتحت الرمالِ

لكنه سيظلُ ينتظرُ دوماً أن تبعثُه الغيومُ

بالمطرِ وترويه فتخـــضرّ مـــن حولـــهِ الأرضُ بالعشبِ

وعلى قبرِه تُحلقُ الطيورُ ويبتسُم العشاقُ

* **

العاشقُ وهو يحلُمُ ببناءِ بيتٍ من الغيمِ، الميــتُ وهو يحلُم بأن

يروى الغيمَ عظامَه في الترابِ. هكــذا نحلــمُ جميعاً بجمالٍ تشكلُه

الغيوُم وبماءٍ نشربُه من التصاق ثدييْها بجفـــافِ القلبِ.

***

ولكن غضبكِ دائماً يأتي

بعد جفافٍ طويلٍ

وبعد غيابٍ

إذْ هو ذا

نبيٌ

أتتْ به الغيومُ

وسكبتهُ الأمطارُ.

* **

.... وكان ما تبقى هو الحبُ

بعد أن غمرتْنا السماءُ

بمياهِ ندمٍ بعيدٍ.

* * *

إشارات:

١/ شكسبير/ حكاية الشتاء (بدوا أنهم سمعوا خبر عالم مخلص أو عالم مهدم).

٢/ ايف بونفوا (ننام في الغرف العليا، لكن نمضي أيضاً وإلى الأبد بين الأحجار).

نداءُ طفلةٍ بعيدٌ كان يقتربُ منّا

-١-

شمسٌ صغيرةُ
سقطت على المائدةِ
رنتْ إليّ
وقبلتْني.

-٢-

هل كان من الممكنِ
أن ننتقلْ بأرواحِنا
من غصنٍ إلى آخر
ونحن نبحثُ عن شجرةِ التفاحِ
التي أضعنا الطريق إليها
مذ خرجنا من حديقةِ الأسرارِ
ونحن صغارْ.

-٣-

الطفلةُ
وهى تخاطبُ الطيرَ:
أنْ خذنى
خارجَ الموتِ
وهو يلتقطُنا
واحداً واحداً
كثمارِ البرقوق

-٤-

السعادةُ

هيَ مايتواطؤ معكَ

ضد الروحِ

فاهربْ عنها

إلى جبَانةِ الأطفالِ

-٥-

لم يعدْ لدينا بيتٌ نأوي إليه
بعد أن أوصدَ آباؤنا أبوابَ قبورِهم
ورمتنا أمهاتُنا للريحِ
للريحِ الصفراءِ شقيقةِ الموتى.

-٦-

أمين صالح

(أ)

كلُّ فجرٍ
تنفضُ الشجرةُ ثدييْها
لتُسقط من جسدِها العصافيرُ
موتى.

(ب)

قالت الشجرةُ:
عندما قذفتُك إلى الأرضِ
كنتُ أعلمُ أنك عائدٌ إليْ
فأنا رحِمُكَ وقبرُك الأزلي

(ج)

خالقةُ العدمِ
مرضعةُ قلوبنا
الموتُ والفناء
الموتُ وهو يتجددُ
كورقةِ شجرٍ صفراء

-٧-

(أ)

أيُّ امراةٍ تلكَ
أيُّ دمعةٍ تلكَ
قادتكَ إلى فراشكِ
قادتكَ إلى فراشِ موتكِ
ثم رحلت....
إلى حنينٍ
يتدفقُ
كماءٍ عذبْ.

(ب)

لم أرها
منذ تُلك الليلة

لاحقاً
أبصرتُها
ميتةً في المنامِ.

(ج)

ابتسمى
وأنتِ تذرُفينَ
دمعَك الأخيرَ
على الأرضِ.

بالأسى الذى تركته وفاةُ شقيقة صـــغيرة قبـــل
ثلاثينَ عاماً،
بأسى الساقياتِ الحاضناتِ جرارَ الماءِ من النبعِ،
بأسى
الغافِة وهي تحنُ علينا بظلالِها في يـــوم قـــيظٍ،
بأسى
الشياهِ الصغيرةِ وهي تنظرُ إلى السمرِ يجفُ في
ألمٍ كحرقةِ
الأكبادِ، بالأسى كآخر وطنٍ للنجمِ وآخر خيمـــةٍ
لليلِ.

-٩-

إلى بيان الحضرمي

عندما فاضت المياهُ وعادت الريحُ حاملةً العشبَ
والغيمَ،

جاءت قطةٌ تموُء على بابِ بيتنـــا المهجـــورِ،
فأدركتُ أيضاً

أن طفلتي عادتْ بها الريحُ من الموتِ، وأنهـــا
ستنامُ

بحضني الليلةَ، لكنها في الفجرِ تسللتْ ثانيةً إلى

قبرِها الصغير.

-١٠-

راقصات النيروز

بيدِ كلِّ امراةٍ ريحانةٌ

وهنَّ يتجهنَ إلى البحرِ

يغرسنَ به الجمالَ

ثم يقذفنَ بأجسادِهن
بحثاً عن ضوءِ الشهوةِ المُضاع.

-١١-

امرأةٌ ترافقها شجرة
الشجرةُ دليلُها إلى
البحيرةِ المقدسةِ
الشجرةُ حارسُها
حارسُ العتمةِ
عندما الأرضُ
تنجرفُ بنا
إلى العدمِ
نتدحرجُ في سديمها
وكغيمةٍ تندثرُ
في سماءٍ معتمةْ
دونَ أن تمطرَ
كنا نسيرُ
بحثًا عن منازلنا
الأولى.

-١٢-

عندما المياهُ جرفتْه

إلى زهرةٍ في البرارِي

عندما امرأةٌ تلتقيه وتبكي

عندما الموتُ وهو يتسعُ كمدىً مطلقْ
يلتقيه كنجمٍ بعيدٍ مضيءْ

-١٣-

وقبلَ أن تصلَ الضوارى

يكونُ رعاةُ الفجرِ

والحطابون ....

قد حفروا ليَ قبراً صغيراً

على التلالِ

وتحدثوا الى العابرين

عن مجهولٍ

فاضَ بقلبه الحبُ

ذات مساءٍ

وألقى بجثته وحيداً

في ذلك الوادى المهجور.

-١٤-

إلى بودليرٍ

أرقدُ الآن تحتَ شجرة فيفاي ميتةٍ، أنـــا وقـــطٌ
عجوزٌ أبى أن يفارقَ
الشجرة، التى كان تحت ظلالِها ينمو وهى بعُد
تثمِرُ وتكبرُ أمامَ
عينيه السِّحريتين .....
ساعةُ الحائط، شجرةُ الفيفاي الميتةُ، القطـــةُ ..
عندما نظرتُ إلى
عينيها وهي مستلقيةٌ كأنثى، كان بياضُ عينيهـــا
الأبديةِ
وكان البؤبؤُ الأخضرُ اللامعُ يسبحُ فـــي ذلـــك
السديمِ الغامضِ،
بعد أنْ تسللت إليه في هدوءٍ عميقٍ روحُ تلـــك
الشجرةِ الميتةِ: شجرةُ
الفيفاي الصغيرةُ، التي لم تعْد تنـــشرُ ظلالَهـــا
الهادئةَ لقططِ الظهيرةِ
ولريح الغريبِ الناعسةِ.

-١٥-

ثمةَ ما يحترقُ

ليضيءَ لنا

عتمةَ الكائنِ المفقودِ

في الليلِ وهو يتفجرُ بالألمِ

بالأسى وهو يلتصقُ بنا

كموتْ.

-١٦-

سوف تأتي كما الطفولةِ

تفترسُ الحلمَ

ثم تظلمُ الأرضُ

وتنثُر بقايا الوحشةِ

ودمارَها.

-١٧-

نداءُ طفلةٍ بعيدٌ كان يقتربُ منا

وكانت نارٌ تضيءُ كوخاً

عندما أبصرتُ رسولاً أتى من الشرق

ثم قبلَ موتِه رمى بردائِه إليْ

ورنىَ مشيراً إلى بئرِ ماءٍ

وإلى جسدهِ كان الألمُ يزحفُ هادئاً

مثلَ نار ...

أوقفى النسلَ أيتُها الأرضُ

اوقفى التراشقَ بالدَّمِ

والحجرِ.

هاهم يغادُرونكِ واحداً واحداً

صباياكِ يحملنَ إليهم ورودا

وبهجةً من الحبِّ والألمْ،

دون أن يُوقفنَ سيلَ

هجرتِهم وانتحارَهم

في الأوديةْ.....

-١٩-

زهرة الخلود

أبوابُ المقبرةِ مغلقةٌ

وزهرُة الخلودِ آوتْنا

إلى الحديقةْ

أشجارُها تذبلُ

عصافيرُها مخنوقةْ

وتحت الشجرةِ

نصلٌ حادْ

تركه آخرُ قرصانٍ

مرَّ قُبيلَ الفجرِ.

لكن الأيامَ

كانتْ تتوقفُ

كلما نظرتُ إلى جمَالها

وهو يهربُ مني....

باتجاهِ الزمنِ

المُفضي إلى أبوابِ موتٍ

صغيرٍ وبطيءْ.

بقيَ اثرها الصامتُ

على الأبواب

دمُها على الأشجارِ

وأشارتْ قبلَ رحيلها

إلى المنازلِ البعيدةِ

التي حلُمنا بالرحيلِ

إليها ذاتَ يومْ.

-٢٠-

أذى

كان العالمُ مليئاً بالسّقمِ مليئاً بالدَّمِ مليئاً بالغبارْ

وبالكائناتِ وهي تسيرُ من عدمٍ إلى عدمْ

كأنها الليلُ لا ينفضُ ديامسُه

إلاّ على نهارٍ ميتْ.

البلادُ

وقد تركنا لها

كلَّ هذا الاذى

تركناها تحترقُ في الشمسِ

تحتَ سماءٍ من العدمْ

خلقنا لها الأذَى

كشمعةٍ في الفجرِ

لا تدفئُها ريحٌ

ولا يضمُّها ظلامْ.

هكذا

سارتْ أيُّها الأذى

فرسُكَ بثقةٍ

على قبورِنا

هكذا

صاحبكَ الدَّمعُ

مبتسماً

فانفتحتْ

صنابير دَمكَ

في الحدائق

حتى جفَّ عُشْبُها

وسقطتْ ثمارُها.

ولكنْ

ربما تكونُ قد التفتَ

إلى الطَّلَلِ

وهو يحتفظُ للطفولةِ

بوردةٍ من صفاءِ الليالي

ولربما رفعتَ رأسكَ

إلى السماءِ وهي تنشَقُّ

لتشرقَ على الأرضِ

طفولةٌ أخرى.

فهرس